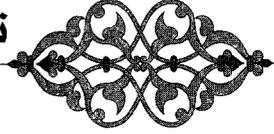


تقديم الطبعة الثالثة



الأستاذ الدكتور فاروق حمادة

الحمدُ لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الطيبين، وصحابته الغرِّ الميامين، وبعده:

فإن كتاب (إحكام النظر في أحكام النظر بحاسة البصر) للإمام الحافظ أبي الحسن علي بن محمد، المعروف بابن القطان الفاسي؛ كتاب عزَّ نظيره، ونَدَّر مثيله مضموناً ومنهجاً، فقد تناول الأحكام الشرعية لحاسة البصر، وتتبعها في مظانها الفقهية وغير الفقهية، وصدَّرها بالآيات والأحاديث النبوية، واستخرج مدلولاتها من هذه وتلك بروح التمكُّن العلميِّ، والنظر الاجتهادي الذي يستند إلى الأصول والقواعد، فجاء أنموذجاً يحتذىه الدارسون الذين يستنبطون الأحكام، وينسبونها إلى الشريعة المحمدية، مع ورع ظاهر حتى في استعمال الألفاظ والكلمات، إنَّه خزانة محشوة بالنصوص الشرعية، وآراء الفقهاء المذهبية، بترتيب محكم ورؤية تامة شمولية.

وقد كشف وجه الحق في هذه الأحكام، ولم يخلط الرأي الذي يدعمه الدليل والحجة بالرأي الذي يستند إلى العاطفة والهوى، ويسقط ذلك على الشريعة الغراء، وأدَّكر أنه المرجع الحجة في هذا الباب، وسيبقى كذلك إن شاء الله، ولقد لقي القبول والاستحسان عبر العصور إلا أنه بقي منزوياً في صقع ذلك

الإمام - المغرب - فنقل عنه علماء ذلك الصقع الذي كان نثياً بعيداً، ولهجوا بذكره واستحسانه، واختصره بعض الفقهاء منهم، ولكن مخطوطاته غدت نادرة لم يعثر المحقق إلا على واحدة وفيها سقم واضح، ومختصر فقهي له لا يخلو من شيء من ذلك، نسأل الله تعالى أن يهيئ لنا نسخاً مخطوطة جيدة منه، ومن المؤلفات البديعة المفقودة لهذا الحافظ الإمام.

وقد طبع للمرة الأولى فنفتت طبعته، ثم صور مرة ثانية عنها فنفتت كذلك، وكنت أحت المحقق على إعادة النظر فيه، ولكن ظروفه لم تكن تسمح له بذلك، فعُدت إليه وقومت ما أمكن تقويمه من نصوصه، وأضفت ما يمكن إضافته ممّا يسهل قراءة النص، أو يلقي ضوءاً عليه، وأزلت أخطاءً مطبعية وقعت فيه، فجاءت هذه الطبعة أنقى من سابقتها، وأصفى وأهنأ للواردين إن شاء الله.

وحقيقٌ بكل طالب علم مخلص، أو باحث جاد، أو عالم طُلعة أن يكون هذا الكتاب بين يديه، ومرجعه فيما تناوله مؤلفه وذهب إليه.

كما جاءت طباعته أعلى وأرقى، طباعةً تليق بهذا الكتاب الفذ في المكتبة الإسلامية.

فأسأل الله تبارك وتعالى أن ينفع به، وأن يغدق على مؤلفه شأبيب الرحمة، ويجازي بالخير والإحسان في الحال والمآل محققه ومراجعته، ويثيب ناشره ثواب العاملين.. إنه خير مسؤول وأكرم مأمول.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

المستشار الدكتور

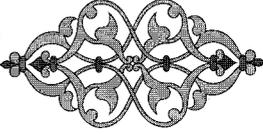
فاروق محمود حمادة

في أبو ظبي

بتاريخ ٣ جمادى الآخرة ١٤٣١هـ

موافق ٦/ماي/٢٠١٠م

تقديم



بقلم الأستاذ الدكتور فاروق حمادة

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِ وَأَنْفُسِنَا
وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ، وَمَنْ يَضَلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مَرشِدًا.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾
[آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَوَجَدَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ
مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ؕ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ؕ وَالْأَرْحَامَ ؕ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ
رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿۷۰﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

- ١ -

أما بعد: فإن كثيراً من الأفكار تتألق بمرور الزمن، وتعاقب الأيام، فتتلاها
في جنبات التاريخ وموجات الفكر الإنساني المتلاحق، نيرة متميزة، يُشار إليها
بالبنان ويُستشهد بها، وتزين بها الآراء، ويحتج بها في المحافل، ويرجع إليها

الناس في كل حين وأن، لا يُقلل من شأنها عند العقلاء أنها ليست من رعونات العصر، أو خارجة عن إبداع الجيل الحاضر ونزقه ونزغاته، وما ذلك إلا لأنها قامت من منطلق صحيح، وبُيت بمنهج دقيق، وعالجت جانباً من جوانب الإنسانية الثابتة التي لا تتبدل ولا تتغير، لأنها من خصائص الإنسان ومميزات وجوده.

وإن أبقى الكتب مع الأيام هي التي تضمُّ قدراً كبيراً من هذه الأفكار، فلها القبول وعليها المدار.

وإن هذا الكتاب الذي بين يديك أيها القارئ الكريم: (إحكام النظر في أحكام النظر بحاسة البصر) من الأسفار التي ضمت نير الأفكار، وقوي الآراء، وسديد الاستنباطات في جانب خطير من جوانب الإنسانية الثابتة، ألا وهو النظر بالعين، وما تعكسه على النفس والمشاعر من آثار، قد تكون هذه الآثار في غاية النبل والسمو وترفع صاحبها إلى مقام الصديقين والشهداء، فيستحق النعيم المقيم في أعلى عليين، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِوْسًا وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٦ - ٨].

أو تهبط بصاحبها إلى دركات الحيوانية، بل دون ذلك، فيكون من الغاوين الذين اتبعوا هواهم، وعاثوا يطلبون مناهم، وأنى لهم ذلك؟! بل شأنهم في تعب دائم، وشقاء متجدد متعاضم، وسُعار لاهب متفاقم، وفي هؤلاء جاء قول الحق سبحانه: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَأَسْلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ

وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ فَكَشَلَ فَكَّالَهُ كَمَا كَلَبَ الْكَلْبُ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٥﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٧].

ولخطورة حاسة البصر، وأهميتها في حياة الإنسان جاءت الشريعة المطهّرة بتحديد مسارها، وبيان الوجه الحقّ لاستعمالها، وضبط العلاقة السليمة بين الناظر وما حوله من الوجود إنساناً وجماداً، كلُّ ذلك بما يتفق وتكوينه وغرائزه، وجبّلته وفطرته حتى تكون حاسة البصر أداة خير وبناء، لا معول هدم وإفسادٍ وشقاء.

وإنَّ أخطر نظرة تكون بهذه الحالة هي النظرة التي تتوجّه من الرجل نحو المرأة، ومن المرأة نحو الرجل؛ بحكم الفطرة التي يجذب إليها أحدهما نحو الآخر؛ وهي التي في الحديث: «النظرة سهم من سهام إبليس».

ولهذا جاءت النصوص الشرعية كثيرة ضافية تضبط النظر من أحدهما نحو الآخر حتى لا يزلّ وينحرف، أو يسقط وينجرف، وليبقى كلاهما في إنسانية كريمة وعلاقة خيرة سليمة.

وقد أولى علماء الإسلام عبر العصور ولا يزالون هذه النصوص الشريفة كامل العناية والرعاية من تفسير وشرح، واستنباط وبيان، وذلك خلال دروسهم للقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، أو في كتب الفقه الإسلامي وأبوابه، وكلُّ باب من أبواب كتب الفقه هو باب للإنسانية على حياتها، إن دخلت منه كان دخولها صحيحاً سليماً، وسيرها مأموناً قويمًا، فالفقه الإسلامي هو كتاب الحياة الإنسانية الواسعة في كلياتها وجزئياتها، في دقائقها ومخفياتها، وقد وقف الفقهاء مع حاسة البصر والنظر وقفات غير قليلة في كتب التفسير، وشروح الحديث، ومصنفات الفقه.

ومع هذا فإنَّ هذا الكتاب فريد في بابهِ؛ إذ استقلَّ بجمعه دون غيره،

وعمل على الإحاطة بمسائله الكبرى وجزئياته، بل تعمق حتى بحث في خلجات النفس ودقائق الورع، وترك الإنسان المسلم يواجه أفكاره، وحركات نفسه، ويراقب الله وحده.. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ فَنَسُوهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

ولا نعلم كتاباً قبل هذا الكتاب أفرد مسائل هذا الباب بهذه الكيفية وهذه الشمولية.

وإن مؤلفه أبا الحسن بن القطان إمام كبير، وناقد خطير، وحافظ جهيد.. إنه شيخ شيوخ الدولة الموحدية التي أطلقت الفكر من عقاله، وألحّت على ضرورة طوافه وتجوّاله للتجديد والاجتهاد، وإن أقوال هذا الإمام وآراءه في علم الحديث والرجال انتهبتّها الدواوين، وتزينت بها الأسفار التي جاءت بعده وغدت متكاً للحفظ والنقاد الكبار، ولئن كان كتابه الكبير (بيان الوهم والإيهام الواقعيين في كتاب الأحكام)^(١) هو الذي جعل صيته يطير شرقاً وغرباً، وسلّم له بالإمامة في علم الحديث كل من أطلع عليه، فإن كتبه الأخرى - وخاصة هذا الكتاب - قد حظيت بكل قبول وتقدير، واهتبال واحتفال، لما أبدى فيه من قوة عارضة، وسعة أفق، وحسن تقدير.

لقد كسر المصنف كتابه هذا على ثمانية أبواب، متميماً بأبواب الجنة الثمانية التي هي محط نظر المؤمنين على الدوام، جعلنا الله وإياه من أهلها، متدرجاً في أحكام البصر تدرجاً سليماً وقويماً؛ بدءاً من غض البصر عما لا يحل، ومشروعية ذلك، إلى ما لا يجوز إبدأه للناظرين وما يجوز، ثم في نظر الرجال إلى الرجال في شتى الأحوال، ثم في نظر النساء إلى النساء، ثم في نظر الرجال إلى النساء، والنساء إلى الرجال؛ وهذان البابان قد بلغ فيهما الذروة، وسامى المجتهدين الكبار، ثم عالج مسألة الضرورات المبيحة، وختمه في تقليات

(١) حقق بإشرافنا وطبع بمقدمة لنا.

الطرف في هذا الوجود، ومشروعية أقوال خاصة وأفعال محددة عند نظر بعض المرثيات، وفي خضم هذه الأبواب الثمانية، جمع فأوعى، واستقصى فأوفى.

وأما عن منهجه في هذا الكتاب، فهو نموذج رائع، وقدوة لكل باحث ودارس، ويمكن إجمال ذلك من خلال النقاط التالية:

١ - لقد جمع ابن القطان كل الآيات القرآنية المتعلقة بالنظر، ووضعها في سياقها الصحيح مع ما قبلها وما بعدها، ونقل أقوال أئمة التفسير فيها بدءاً من الصحابة الكرام ومن تلاهم من التابعين، كاشفاً عن أقوال أئمة اللغة العربية، مع بيان موضع الدليل، ومناطق الأحكام فيها.

وأما نصوص السنة الشريفة، فحدث عن البحر ولا حرج، فلقد جمعها من مظانها، ولم يفتنه منها نصٌ ذو شأن، وخطَّ لجمعها خطَّةً جليلاً، فقد التزم بأن يورد الحديث الشريف إذا كان صحيحاً دون إسناد مع بيان مصدره، وإن كان فيه نظر عند المحدثين أو تكلم أحد فيه ساقه بإسناده، وتكلم عليه جرحاً وتعديلاً وتصحيحاً وتضعيفاً، وأما الحديث المعروف بالضعف فيورده ويشير إلى موضع العلة فيه. ومن خطته: تقديم الصحيح للاحتجاج، والتعريض على ما فيه كلام ويصلح للاستشهاد، ثم يورد الضعيف لبيان ضعفه حتى لا يأتي آتٍ بعده فيظنُّ به أنه لم يطلع عليه أو قصر في جمعه والنظر فيه.

وبيّن في كل نصٍّ موضع الدليل، وما يمكن أن يثور في الاعتراض عليه، وما قاله فقهاء السنة إن تنازعت دلالته الآراء.

لقد ذكر في كتابه هذا نحواً من مئتين وسبعين حديثاً في موضوع النظر، وتكلم عليها بما يكفي ويشفي، واقتبس علماء الحديث من بعده طرفاً غير يسير من كلامه فيها.

٢ - لقد أحاط المصنّف في كتابه هذا في موضوع النظر وما يتعلق

به بمذاهب الفقهاء المعبرين؛ بدءاً من الصحابة الكرام، ومن تلاهم من التابعين، حتى الأئمة الأربعة: أبي حنيفة النعمان بن ثابت، ومالك بن أنس، ومحمد بن إدريس الشافعي، وأحمد بن حنبل، ومن سار خلفهم من كبار علماء الإسلام الذين يعتدُّ بقولهم، ويُرجع إلى رأيهم ونظرهم.. وكان يسوق أقوالهم، ويستقصي مذاهبهم من كتبهم المعتمدة، بكلِّ أمانة وإنصاف وإتقان واستيفاء، ثم يبيِّن قوياً هذه الآراء وقويمها بالحجة والبرهان، دون تعصُّب لمذهب أو انسياق مع فكرة سابقة، فهو متحرِّجٌ للدليل، مجتهدٌ في الرأي، غير منتقٍ من الآراء بدافع هووى معين، أو ملفقٍ بين بعضها تحت ضغط رغبة جامحة أو نزوة طارئة!.. وقد بلغ في هذا شأواً بعيداً، فهذا الكتاب من هذه الناحية كتاب فقه مقارن، وبه يظهر لنماذج من عصرنا وقد نتقوا من القرآن أو السنة نتقاً، ولم يلامسوا من العربية إلا القليل، وأرادوا الاجتهاد، يظهر لهم كيف يكون الاجتهاد، إنهم بنتفهم قد ضلوا وأضلوا، وزلوا أيما زلل وأزلوا، فالاجتهاد كلمة محببة، ولكن الوصول إليها ليس بالأمر الهين، إنه ليس بجمع نصوص لا يدري جامعها ما يصنع بها، أو النظر فيها دون معرفة تفسير الذين نقلوها ورووها..

إنَّ من المهمَّات في باب الاجتهاد الإحاطة بمذاهب المتقدمين، ومعرفة دليل كل واحد منهم، وحجته فيما ذهب إليه، وإنَّ من ينظر إلى صنيع ابن القطان في هذا الكتاب يتيقن أنه من النخبة المتميزة في تاريخ الفقه الإسلامي.

وإن المكتبة الفقهية التي رجع إليها ابن القطان لاستعراض المذاهب والآراء واسعة جداً؛ عرفناها من خلال هذا الكتاب، ومن خلال كتابه البديع المسمى (الإقناع في مسائل الإجماع)^(١)، الذي نخل فيه كتب فقه المذاهب المعتمدة وأصولها المتداولة المرضية في كل مذهب، وعرفنا من خلاله دقته وحسن تصرفه في كتب الفقه على اختلافها.

(١) طبع بتحقيقنا مع شرحه ودراسته في دار القلم بدمشق.



٣ - لقد أجاد ابن القطان وأفاد في بحثه لمسألة النظر، وما يجوز إبداءه، وما لا يجوز وغير ذلك من المباحث الكثيرة التي عرض لها، أجاد وأفاد في ربط النصوص الشرعية بمقاصدها، والحكمة من تشريعها، وبيان الغاية منها في تكوين الإنسان الربّاني الصالح، وإبعاده عن مواطن الشبه والريبة، والسمو به عن دركات الفاحشة، فكان تحليل النصوص هاجساً له يسير معه، ويستعين به، وهو ينظر في القرآن الكريم والسنة المطهرة، فلم يكن نصياً جامداً يقف مع الظواهر أو يحشر المتناقضات، بل كان يوجه النصوص تبعاً لمقاصدها ويوفق بين ما ظاهره التعارض بوضع كل نص في محله الذي سيق من أجله.

ومن يقرأ هذا البحث يشعر شعوراً غامراً بأن فقهاء الإسلام، كانوا على الدوام أطباء المجتمع، وحرّاس الفضيلة فيه، ومصّلحي خلل الأمة، بل كانوا نبضها المتحرك، وروحها الوثّابة، خبرة ومعرفة بما يجري ويدور في خلد الناس، وجنّبات المجتمع، وأعماق الأُسُر.. فيدلّون الناس على الخير، ويجهدون لهم بالنصح، ويضعون نصوص الشريعة طبقاً للغاية التي جاءت من أجلها دون تعسّف أو التواء؛ لأن الحياة بغير ذلك تفسد ولا تستقيم.. ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

٤ - ومن خلال الثمانية الأبواب التي أدار المؤلف كتابه عليها فرّع كل باب إلى مباحث ومسائل دقيقة جداً؛ استوعب بها ما هو واقع، وما يمكن أن يخطر بالبال في حياة الإنسان وله تعلق بالنظر والبصر والعورات، والضرورات، وبهذا يمكن الجزم بأن هذا الكتاب موسوعة شاملة فيه ما ليس في غيره من كتب الفقه والتفسير وفقه الحديث، ويغني عن غيره ولا يغني غيره عنه، ويسوق المسائل بمنهجية صارمة وتسلسل دقيق دون تكرار أو إعادة، وقد بلغت مسأله نحواً من مئة وإحدى وسبعين مسألة.

٥ - لقد وصل ابن القطان في كتابه هذا إلى نتائج حاسمة في تحديد العورات للرجل والمرأة، وما يجوز للمرأة إبداءه، وهو الوجه والكفان فقط، وتردد في القدمين، ومال إلى عدم الجواز، فجاء هذا الكتاب ردّاً على مَنْ أراد تجريد المرأة والرجل من الإنسانية، وإطلاقهما في غابة الهبوط الحيواني دون خلق، أو وازع، أو حياء، وهذه حالة مَرَضِيَّة في تاريخ الإنسانية تتكرر آنًا بعد آن، فقد كانت قديماً في الجاهلية: ﴿وَلَا تَرْجَعُ نَرْجَحُ الْجَهْلِيَّةَ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٢٣] وتكون اليوم، وغداً.. فلا بدّ لعلماء الشريعة استهداءً بنور الوحي من بيان حكمها والعمل لسدّ خرقها.

وجاء كذلك ليردّ على تشدّد طائفة غَلَّتْ في الأمر، وأرادت إحاطة المرأة بضباب كثيف، وفرضت عليها تغطية كلِّ شيء فيها، وزعمت أن هذا هو الدين الحق.. وإني أقول لهؤلاء على الدوام: لو قلت: إنها الغيرة على الحَرَم، أو الورع والاحتياط؛ لسلمنا ذلك لكم، ولن يلومكم أحد بل يُحمد لكم ذلك، أما أن تعتقدوا وتروّجوا للغلو، وتفستّموا المخالف؛ فهذا أمر لا يصفو لكم، ولا حجة لديكم.

وقد ردّ عليهم ابن القطان بالحجج الدامغة والأدلة البيّنة التي لا تدع قولاً لقائل، بعيداً عن تطويح العواطف، ونزق الأحداث العارضة، فالشريعة دائمة بدوام الإنسان، محيطة بكلِّ حياته وأفراده.

إنّ المسلمين جميعاً إن شاء الله سينتفعون بهذا الكتاب، وستكون فائدته أعظم عند الباحثين عن الحق المنقبين بطمأنينة عن الدليل، ولا سيما في هذا الوقت الذي نرى فيه أفكاراً شاذة عن الزمان والمكان.. تصبّ الجهود لفرض هيئة معينة، والإسلام يحاول المحاولون اقتلاعه من جذوره، ويعطيهم السُدج من هؤلاء البرهان والتمسك بخروج المرأة المسلمة في هيئاتها التي يروّجون لها: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

- ٢ -

• لقد تشوَّف الباحثون والدارسون، وعلماء الإسلام وطلَّاب العلم إلى هذا الكتاب عبر العصور لجلالته وأهميته، وتوَّارى عن الأنظار دهرًا طويلًا، وقد ادَّخر الله تعالى الفضل في إخراجه وتعميم نفعه في المشارق والمغارب للأخ الأستاذ إدريس الصَّمدي، فأخرجه من ظلمات الرفوف في خزانة الأسكوريال بإسبانيا ليضعه تحت نور الأبصار، والله يختصُّ مَنْ يشاء بما يشاء.

والنسخة الوحيدة التي نعلمها لهذا الكتاب هي نسخة الأسكوريال، وهي نسخة سقيمة وفيها أخطاء كثيرة، وقد عكف الأستاذ الصَّمدي عليها بصبر وتؤدَّة دون كَلَل أو مَلَل، ولقد كان يعمل بها، ومرَّت به عاصفة من الأسقام والأمراض فما ونَّته عنها، وما أقعدته عن متابعتها، وكنْتُ أشفق عليه وهو يجد في ذلك لذة وحلاوة، واستطاع أن يخرجها ويقوم كثيرًا من كلماتها وعباراتها، ويردّها إلى الصواب بما رجع إليه من مصادر ومظان استخدمها المصنف، وبقيت كلمات صعبت عليّ وعليه فنرجو الله وَعَجَّلْ أن يبسر لنا نسخة أخرى لإصلاحها واستكمالها.

ثم قام بتخريج أحاديثها وتتبعها بشكل جيد، وترجم لعديد من الرواة الذين ذكروا في الأسانيد، أو حام حولهم تليل ابن القطان وتضعيفه.

كما ذكر مظانَّ كثيرٍ من المسائل الفقهية التي أوردها ابن القطان في كتابه، وتكلَّم فيها بما يسهل الرجوع إلى عديد من المصادر لمن أراد المزيد. كما عرَّف بالكتاب وبصاحبه قبل الدخول إليه تعريفًا مطولًا نافعًا إن شاء الله.

لقد أسدى الأستاذ إدريس الصَّمدي للمكتبة الإسلامية: الحديثية والفقهية بهذا العمل كتاباً نفيساً، تُشدُّ عليه يد الضَّنانة، ويقتنى بكلِّ غالٍ ونفيس، أسدى

مرجعاً أساسياً لا يُستغنى عنه، تقبّل الله منا ومنه هذا الجهد، وقد كان هذا الكتاب مع دراسة له رسالة نال بها درجة دبلوم الدراسات العليا من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط بتقدير «حسن جداً».

• وقد تناولتُ الكتاب أثناء عمله فيه، وبعد انتهائه منه، فدققتُ كلمه، وأصلحتُ عدداً منها ومن عباراته من الأصل ومن غيره، وتتبعْتُ مسأله وأحاديثه وعلقتُ على عدد منها بما يقنع ويفيد إن شاء الله.

وقد ميزتها عن عمل الأستاذ إدريس بوضعها بين قوسين، وتصديرها بـ (قال أبو محمود:...) واقتصدت في ذلك ما أمكن، وضبطت عدداً من النصوص بالشكل.

وبذلك نرجو أن يكون هذا السّفر النفيس قد غدا معيناً سائغاً للواردين ينهلون منه كلّ أنٍ وحين، سائلين المولى تعالى أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه، ويفيد الأمة في عاجل أمرها وآجله، ويتولانا بكريم رحمته وعنايته، إنه سميع مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

الدكتور فاروق محمود حمادة

أبو محمود

في القنيطرة بالمغرب الأقصى